نحو أدب إسلامي للطفل

د. ناول عبدالهادي
المغرب

إن اهمية الطفولة تتاتى من كونها مرحلة تشكل في مجملها ميدانا خاصا يساعد المربين والعلماء والموجهين على زرع ما يرون من توجيهات وافكار واخلاقيات دون ان تعترضهم مقاومة او عناء يذكر، حيث يكون الإنسان في هذه المرحلة من العمر ادعى لقبول كل ما يلقى إليه في غياب العقل الواعي المميز، وعلى هذا الأساس جاء الاهتمام المتزايد بالطفل في العقود الأخيرة برهانا على هذه المرحلة وتاثيراتها في المجتمع .. هذه التاثيرات التي لا تلبث ان تظهر عاجلا او آجلا .. ووصل الأمر إلى حد إنشاء مؤسسات وهيئات مختصة في شؤون الطفل يسهر على توجيهها عدد من المختصين والدارسين وعلماء النفس والاجتماع .. تعمل على توجيه الأطفال وتكوينهم وفق نمط تربوي ينطلق من رؤى وتصورات محددة . وتتجلى خطورة هذا الأمر إذا علمنا ان هذه المؤسسات تتجاوز في مخططاتها النطاقات المحلية إلى المستوى العالمي حيث تضع ضمن برامجها توجيه الطفولة في كل مكان من العالم توجيها معينا يخدم مصالحها واهدافها في النهاية . وتتوسل هذه المؤسسات - في سبيل تحقيق اهدافها - بعدة اجهزة اغلبها متمثل في وسائل الإعلام، حيث نلاحظ على طول الساحة وعرضها التراكم المتوالي للكتب والمجلات والقصص والأفلام ... الموجهة للطفل .. وكلها وسائل تتضافر من اجل دفع الأطفال نحو تبني سلوكيات واخلاقيات مرسومة - من حيث لا يشعرون .

إن سلخ الأطفال عن عقيدتهم وهويتهم - خاصة في الوطن الإسلامي - يشكل هدفا استراتيجيا يضعه مفكرو الغرب ومختصوه نصب اعينهم، وهو ما يؤكده هذا الغزو المتصاعد للآداب الأجنبية الموجهة للطفل . فالأسواق تعج بالقصص المثيرة، والمجلات المصورة ذات الشكل الأنيق الجذاب الذي يستهوي أفئدة الصغار، والأفلام والمسلسلات ذات المغامرات الشيقة، واشرطة الرسوم المتحركة .. إن هذا الزخم المتنامي يجعل الحبل يفلت من بين ايدينا، ويضع مستقبل ابنائنا في يد غيرنا ما دمنا نترك لهم حرية التوجيه من مواقعهم داخل عقر دارنا، وهو امر لا يمكن غض الطرف عن جسامته وخطورته على حاضر الأمة ومستقبلها .

لقد صار لزاما التنبه لخطورة هذا الوضع خصوصا ان استهلاك الأطفال للمواد المصدرة إليهم - بل حتى المحلية التي اصبحت تسير على نفس المنوال بفعل الانهزام الحضاري - في اطراد وارتفاع - وهو ما ينبئ بنتائج وعواقب غير محمودة .. وقد اظهرت عدة دراسات في الغرب نفسه مدى خطورة بعض ما يقدم للأطفال، وتحدثت عن التاثير السلبي لأفلام العنف والالعاب الإلكترونية .. وغيرها من المواد التي تسهم بشكل او باخر في تشكيل نماذج بشرية ممزقة ومنحرفة .

إن الذي يهمنا في هذا الإطار هو إبراز اهمية وخطورة الأدب ودوره في التكوين والتربية .. مما اهله ليحتل مكانة متميزة في سلم الأساليب والوسائل المعتمدة في توجيه الأطفال، خصوصا مع تنامي الطلب والتهافت الكبير على القصص والحكايات المكتوبة والمصورة .. وهذا ما ترك الساحة حكرا على مؤسسات بعينها عالمية الطابع، وهو امر لا يخلو من خطورة على العالم الإسلامي إذ يجعل الأطفال عرضة للتاثر بالأفكار ومواقف مبثوثة في طيات كل إبداع مصدر إليهم في غياب ادب إسلامي أصيل للطفل المسلم، حيث لا يزال هذا الميدان يشكو من فراغ رهيب وفقر مدقع، مما يدفع الأطفال - من باب حب القراءة والاطلاع - الى التهام كل ما هو موجود دون النظر في مصدره او التامل في اهدافه .

إن قسطا كبيرا من المسؤولية يقع على عاتق الأدباء الإسلاميين - بوصفهم مربين ومرشدين في ذات الوقت - ويوجب عليهم تقديم نماذج إبداعية مقنعة للطفل : نماذج تعانق احلامه، وتتغلغل في أعماق نفسه لتمارس التهذيب والتوجيه متوسلة بالأسلوب المحبب الرشيق والرسوم الجذابة .. وهو ما يجعلنا اقوى في التبليغ وابلغ في التاثير.